ترجمة وتحليل :

# الخلود (*)

## لشاعر الحب والجمال لامرتين

ترجمة الأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

— ١ —

كان لفاجعة لامرتين في حبيبته (جوليا) — وهي موضوع قصة (رفائيل) — أثر عظيم في إرهاف حسه ، وإخصاب خياله ، وتفتيق عبقريته : فله فيها مراث جياد تفور بالعاطفة الجياشة ، وتزخر بالتصوير البارع ، وتمتاز بالنفس الطويل .

ولا ينسى مطلع على كتاب (من الأدب الفرنسي) تلك اليد البيضاء التي أسداها إلى أبناء هذا الجيل أستاذنا الجليل الزيات يوم نقل إلى العربية بقلمه الرشيق ، وحسه الدقيق ، وأسلوبه الذي لا يجارى ، قصائد ( البحيرة ، والوحدة ، والوادي ، والمساء ، والذكرى ، والدعاء) فأطلعنا على نفسية شاعر عظيم، وعلمنا كيف نترجم للخالدين ...

أما القصيدة التي نقدمها اليوم إلى الرسالة — بعد غيبتنا الطويلة — فهي إحدى مراثي لامرتين لحبيبته ، وهي فياضة بصوره وأخيلته ، تصف بلباقة ما كان يكظمه من الحزن ، وتفصّل بأسلوب شعري علاقة الروح بالبدن ، وتقوّي في الفطرة السليمة عقيدة ( الخلود ) .

* * *

نظم الشاعر هذه القصيدة سنة ١٨١٧ بعد أن مضى زمن قصير على موت جوليا وأفول شمسها ، وكان الحزن لا يزال يلوع قلبه ، ويحطم أعصابه ؛ فلا غرو إذا كانت نفثاته في كل فقرة تنطلق كالزفرات وتوشك أن تسكب الدموع ؛ ولا بدع إذا شرع — في استهلال قصيدته — يصور فكرة الفناء بأسلوب يثير الخشوع .

فالشمس ليست عنده آية النهار ومصباح الوجود ، وإنما هي شمس أيامنا السريعة التي ما تكاد تشرق حتى تؤمن بالغروب ؛ فتشحب في صباحها قبيل ضحاها ، وتستبدل اصفرارها بسناها ، وتأفل متعثرة بخطاها ، وتغضنُ على جباهنا الكليلة الفاترة ، بأشعتها المرتجفة الحائرة ، ثم تمر بها علينا باهتةً حائلة تتهاوى بين يدي الليل الهاجم ، فتتوالد في عقبها ظلمات حوالك يولي منها كل شيء فراراً ، ويمتلئ من سوادها رعباً ، ويتمحى في طياتها ذعراً ورعباً .

« إن شمس أيامنا تشحب مع صبحها المتنفس !
وعلى جباهنا الكليلة تلـقي وهي تتردد
أشعة مرتجفة تتقاوم الليل المدمس :
فيولد الظلام، ويموت النهار، ويتمحى كل شيء ويتبدد »

وجدير بالإنسان الذي وُهب حساسة وشعوراً أن يتمثل فكرة الفناء كلما رأى مغرب الشمس ، وحضر مأتم النهار ، وشهد مولد الليل ! وجدير به أن يقشعرّ جلده ويلين قلبه لهذا المنظر الخاشع المؤثر ، وأن يوجس في نفسه خيفةً من ظلام الدجى وأن يتلمس مواطئ قدميه حيناً أمرى ، فإذا أحس أنه على شفا حفرة أو لدى شفير مهوى ، تراجع منتفضاً ناكصاً على عقبيه ، وظل متراجعاً حتى يثوب حسه إليه .

ولقد يسمع أثناء نكوصه وانقلابه ألحاناً تشكو ، وأنغاماً تبكي ، وزفرات تتصاعد حرّى ، وأنفاساً تختنق كرباً ، ونواقيس تنتحب وتُلمى ، وأجراساً تملن نعياً ... تلك أصوات تعزي المشتاق في فقد أحبابهم ، والإخوان على رحيل صحابهم ، يوم جثوّهم على مُرُر الموت لا يتزحزحون ، وتشبثهم بأقدامها لا يتحولون . فلتمش الرعدة في أوصال الإنسان إذا ما سمع هذه النغمات ، فإنها — مهما بعدت عنه — نذير الفناء ، يسكر في القلب صفو الهناء .

« ما أحرى الإنسان أن يقشعر لهذا المنظر ويلين
ويتراجع منتفضاً من مهاوي الشقاء ،
ثم يرتعد حين يسمع لحن الموت الحزين
الذي يوشك أن يتعالى في الفضاء ،
ويحتبس الأنفاس من عاشقة ولهى أو أخ حيران

(*) هذه القصيدة هي الرابعة في ديوان ( التأملات الشعرية ) ، وهي من مختارات لامرتين وروائعه .

متشبثين بأقدام السرير الرهيـــب ،
أو ناقوساً منتحباً يُطفىء صوته الحياة
أن شمس بائس شـــق آثرت المغيب ! »

أما وإن هذه الشمس الغاربة الخليقة بتحية الشعراء ، فإنها رمز حزن لاحتضار بائس يستحق العزاء ! فليضع الشاعر يده على ما يكمن في الموت من أسرار ، وليسمّ المحتضر ( فدية ) تستغفر بها السماء من ذنوب الأرض وخطاياها ؛ وليناج روحه مخففاً عنه ما غشيه من سكرة الموت ورهبة الحساب ، غابطاً إياه على رحيله من دار الفناء إلى الملأ الأعلى ، حيث تتغير حياته وتتبدل عاداته ؛ فلن يحمل سيفه الصقيل ليطيح بالرءوس ظلماً وعدواناً ، ولن يقطب جبينه ويحدق ببصره ليغاضب إنساناً ، ولن يطلب الشر ويسعى إليه ، فسيلهمه الله كل معاني الخير ، وسيجعله ملكاً رحيماً يضيء بنوره ما حوله ، ويحمل بيده مشعلاً قدسياً يمض منه بريق الرفق والحنان .

« سلاماً أيها المحتضر ! إنك لم تبدُ لحظة في دنياك
— يا فدية السماء — بهـــذا المنظر المخيف
الذي غشّاك به ذعرُك أو خطاياك .
لن تشهر ذراعك أبداً ســـيفك الرهيف ؛
ولم يُمدّ لك جبين عبوس ، ولا بصر حديد :
فسيلهمك الإله الرحيم مواساة الضعفاء .
وأنت لا تبيد ... بل ستنطلق في عالم الخلود ،
حاملاً بيدك مشعلاً قدسياً يا ملك السماء ! »

طوبى لروح المحتضر ! فإن مآله إلى عالم الأنوار الشعشع إلى الأبد ، بينما الأحياء في دار الفناء يقضون نصف حياتهم بلا نور ؛ فتى وفد الليل هجعت العيون ، وانطفأت الأنوار ، وامتد الظلام .

طوبى لهذا الروح ! فإنه سيكون أحد هذه الأرواح العلوية التي تحمل مشاعلها القدسية ، وتنزل من السماء إلى الأرض لتسور بيوت النائمين ، فتدنو من فراشهم ، وترقد إلى جانبهم ، ثم تسبح بهم في بحر من نورها الأزلي ، وتُغرق أجفانهم في موج من ضيائها الأبدي ؛ وتريهم في منامهم أخيلة واسعة ، وأضواء ساطعة ؛ وتريهم الليل نهاراً ، والسراب أنهاراً ؛ وتريهم النائمين بين القبور يفتحون بيد الأمل أبواب الخلود ، ويدخلون بسلام آمنين

« وإذا أحيل بين بصرى الحسير وبين النور
أقبلت تغرق جفنى بنهـــار أصفى وأزهى ؛
فيفتح لى الأمل — وأنا قريب منك هائم بين القبور
متيم بالإيمان — عالماً أسمى وأبهى ... »

وهذا العالم السرمدي الذي تنعم به الأرواح في منامها ودّ الشاعر لو يسمو بنفسه إلى آفاقه ، لأنه الوطن الأول الذي نزح الإنسان منه فينبغي أن يعود إليه ؛ ولكنه يرى أغلال حسه وقيود بدنه تعوقه عن الطيران ، فليست يداه جناحين فيحلق بهما في السماء ، وإنما هما وسائر أعضائه سجن ضيق يتحرك فيه بقدر ، ويدور منه على حذر . فمن له بتحطيم أغلاله ، وفك قيوده ، وفتح سجنه ، وجعله طائراً يطير سوى هذا الروح الطليق الذي يمضي في اللانهاية حيث يشاء ؟

فليستنجد به عله يُصرخه ، وليستعجله إلى نجدته قبل أن يقذف بنفسه إلى العالم المجهول ، وهو في غمرات الحيرة والذهول .

« تعـال إذن ... تعـال حطم أغلال حسى !
ثم افتح سجنى وأعرنى جناحيك فأطير على رسلى !
ما يبطىء بك ؟ أسرع فإنى قاذف بنفسى
إلى هذا العـالم المجهول فابقى وأصل ... »

ويخيل إلى الشاعر — وما ذاك منه سوى خيال — أن روحاً لبى نداءه ، فحطم أغلاله ، وأطلقه من سجنه ، وألقى في روعه أنّ في مكنته أن يطير ؛ فينظر فيما حوله حائراً شروداً ، ويرى أنه خُلق خلقاً جديداً ؛ فتعجب نفسه من نفسه ، ويقارن بين حاضره وأمسه . ويتساءل عن الذي فك قيود حسه ، ويستفهم عن منقلبه ومصيره ، وعن سر بعثه ونشوره . ويستعلم من الضيف المجهول الذي أجابه إلى رجيته ، وعن مثواه العلوي الذي كان فيه وعن غرضه حين سعى إليه .

« من حطم أغلالى ؟ من أنا وما ينبغى أن أكون ؟
إنى أموت ... ولا أفهم سر بعثى ونشورى ...
عبثاً أسألك أيها الضيف المجهول والروح الأمين !
أين كان مثواك قبل أن ترد حياتى وشعورى ؟ »

( يتبع )

صبحي ابراهيم الصالح